ملامح الاغتراب الزمني في روايتي: ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي واكتشاف الشهوة لفضيلة الفاروق

د/ مشقوق هنية
جامعة بسكرة –الجزائر

الملخص:

تحاول هذه المقالة الوقوف على الحالة النفسية للشخصية التي ظهرت بمظاهر اغترابية متنوعة كالقهر والصمت العزلة النفور من الحاضر المثقل بالهموم والجراح والحرمان، فكان الزمن الذي مضى ملاذها التي تركن إليه بحثا عن فسحة للأمل فالذاكرة هي الدرع الواقي لهذه الشخصية التي اتخذت الشوق والحنين والإبحار في ذاكرة الماضي وسيلة للإعدام السيكولوجي للواقع المأساوي الذي تعيشه.

Résumé :

Cet article vise à d'étudier l'état psychologique d'un certain personnage manifestant toute sorte d'apparences aliénistes ; psycho traumatisme silence, isolement et répulsion du présent chargé de chagrins, de blessures et de frustration face à cette situation, elle ne trouve de refuge que dans les souvenirs du passé pour chercher une lueur d'espoir. Ainsi, la mémoire sert de d'antichoc pour ce personnage qui s'est servi de la nostalgie et de la navigation au font des souvenirs du passé comme d'instruments pour condamner la situation tragique qu'elle endure.

1- الإبحار في ذاكرة الماضي ومتلازمة الخيبة والحنين:

لا شيء كالخيبة يعيد للنفس بهاء الماضي وتوهجه، فالارتداد للماضي هرب من الواقع الفج بما هو عليه من ظلم واحتقار، وفرض للقيود ومنع للحريات، وهرب من واقع تدحرج فيه الناس من سلم القيم المثلى، ليبعوا مبادئهم لأجل مصالحهم الخاصة, فعبر الاتكاء على تقنية الفلاش باك

والرجوع إلى الزمن الماضي, يتم الفرار من الحاضر إلى الماضي. لاستثمار الذكريات درعا واقيا، ووسيلة لكشف المخبوء الذي بقي حبيسا ينتظر من يدفعه للخروج والتعري أمام الذات والجماعة.

كان لاستحضار الماضي في رواية "ذاكرة الجسد" ما يبرره؛ لأن البطل في مواجهة حادة مع ذاكرته التي لم يستطع أن يُشفى منها، وهو ما يؤكده هذا المنقول (نحن لن نُشف من ذاكرتنا، ولهذا نحن نكتب، ولهذا نحن نرسم)[1]؛ فالانكسارات والمصائر التعيسة التي التفت حول البطل جعلته يستحضر الماضي البعيد ليخبرنا عن سبب انفصاله القهري والاجباري عن الثورة التحريرية، أين أصيب في معركة من معاركها في ذراعه اليسرى، ليكون الثمن بتر ذراعه (لم أكن أعي وقتها أن طموحاتي لا علاقة لها بالمكتوب، وأنّ القدر كان يتربص بي وجاءت تلك المعركة التي دارت على مشارف "باتنة" لتقلب يومها كل شيء، فقد فقدنا فيه ستة مجاهدين، وكنت فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، وإذا بمجرى حياتي يتغير فجأة وأنا أجد نفسي من ضمن الجرحى الذين يجب أن يُنقلوا على وجه السرعة إلى الحدود التونسية للعلاج، ولم يكن العلاج بالنسبة لي سوى بتر ذراعي اليسرى، لاستحالة استئصال الرصاصتين (...) وها أنذا أمام واقع آخر)[2].

هذا الماضي الذي تحرك في نفس البطل ليس وليد الصدفة بل للحاضر دخل في ذلك (فاللحظة الحاضرة من أهم محفزات الاسترجاع بما تتضمنه من شخوص وأحداث وأمكنة وأشياء تثير ذكريات الماضي ،ولعل المقارنة بين الحاضر والماضي تدفع الشخصية لاستحضار الماضي ورؤيته من منظور زمني جديد) [3]، فالحاضر أرّق حياته وكتم أنفاسه، وجعله محط سخرية وتجاهل جميع الأطراف، سواء من كان معه في الماضي "سي الشريف" ومن والاه، أومن جمعه الحاضر بهم (أحلام).

إن بتر الذراع لم يكن سوى سببا رئيسا في انفصال "خالد" القهري عن الثورة (ها هو ذا القدر يطردني من ملجئي الوحيد، من الحياة والمعارك الليلية، ويُخرجني من السرية إلى الضوء، ليضعني أما ساحة أخرى ليست للموت وليست للحياة، ساحة للألم فقط (...) فلقد بدا واضحا من كلام (سي الطاهر) يومها، إنني قد لا أعود إلى الجبهة مرة ثانية)[4]، ليتكبد بعدها قهر وحزن هذا الانفصال الذي رمى به إلى الجهة الثانية من الحياة، حياة الرفض والوحدة والنظرات المشفقة والأسئلة المقلقة والمحيرة حول سبب بتر هذا الذراع.

لقد أفل نجم البطل الذي أصبح يعيش حالة تصدع للقيم وتفسخها في الحاضر، فبعد أن كان في الماضي هو و"سي الشريف"و"سي مصطفى" على عهد واحد لطرد الاستعمار والتمتع بالحرية، ها هو اليوم وحده منغلق على نفسه مجبر على رفض الحاضر يعيش حالة من العزلة والرفض لا يأبه له أصدقاؤه الذين باعوا مبادئهم ولهثوا وراء الأموال والسيارات الفارهة والبدلات والأنيقة.

فاستعاض عن هذا الزمن وأبحر نحو الماضي بذاكرته إلى فترة الاحتلال ودخوله "سجن الكدية" إثر مظاهرات (08 ماي 1945) التي عرفتها البلاد (في سجن "الكدية" كان موعدي النضالي الأول مع "سي الطاهر" كان موعدا مشحونا بالأحاسيس المتطرفة، وبدهشة الاعتقال الأول بعنفوانه وبخوفه [...]، وكان سجن "الكديا" وقتها ككل سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض رجولة إثر مظاهرات 08 ماي 1945 التي قدمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيها أول عربون للثورة ممثلا في دفعة أولى عدة آلاف من الشهداء سقطوا في مظاهرات واحدة وعشرات الآلاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات)[5]، فـ"سي الطاهر" طبع على ذاكرته وحياته تأثيرا بالغ الأهمية، فقد كان مشفقا عليه، لأنه يتيم وصغير (كان يشنها سرا على سنواتي الست عشر، على طفولتي المبتورة، وعلى (أما) التي كان يعرفها جيدا)[6].

فالبطل في مواجهة مباشرة مع الزمن الحاضر الذي بدا رافضا له (ليس هذا الزمن لك إنه زمن لما بعد الثورة)[7]، من هنا ومن هذا الرفض وهذه المواجهة كان الاندفاع نحو الماضي وسيلة هروبية لدفع مشاعر الحزن والضيق والتهميش، ليصبح زمن اللاجدوى محفزا للذاكرة على ارتياد الماضي الذي شكّل (الملاذ الذي يأوي إليه الراوي للتعبير عن فقد القيمة في الواقع المعيش واهتراء معاييره)[8].

إن وعي البطل بتغيُر القيم وتلاشي المعايير على المستوى الأخلاقي وإدراكه لما يقوم به "سي الشريف" ومن والاه من أصحاب البطون المنتفخة من تجاوزات، جعله دائم الشوق والحنين لأيام الثورة ولـ"سي الطاهر"، تلك الشخصية التي لو كانت حاضرة لانضمت إليه وساندته في رفضه (ليصبح الزمن سبب من أسباب معاناة الإنسان، وشعوره بالقلق ووضعه في مجال سلمي يمنع حقه في الامتلاك الوجودي)[9]، كما يمنع حقه في التَّغيير والتَّعبير وإعلاء الصوت.

مادام البطل يرفض الحاضر ويمقت كل الذي حوله، فمن الطبيعي أن يترك المجال للانسيابية والاستذكار واسترجاع أيام الثورة والطفولة واليتم والسجن، فكلها يظهر ثقلها في الحاضر أكثر من

الماضي (عندما أذكر تلك التجربة، تبدو لي كثافتها ودهشتها، وكأنها أطول مما كانت رغم أنها لم تدم بالنسبة لي سوى ستة أشهر فقط قضيتها هناك)[10]؛ يبدو هذا الاسترجاع في ظاهره مجرد ذكرى ماضية، لكنه يضعنا أمام العوالم الباطنية والذاتية للبطل الذي ضاق ذرعا بالحاضر، ومتغيراته السلبية التي بددت الروح وأزهقتها، فحتى الذكريات لم تمنع ثقله وحرائقه التي طالت نفس البطل.

إننا إزاء كثير الاستذكارات التي تخص التحاق البطل بالثورة وانفصاله القهري عنها؛ مما يؤكد تداخل الذكريات وتزاحمها في ذاكرته وتدافعها تباعا، فهي تطفو إلى سطح سرد الحاضر كي تلغيه(أي صدفة... أن يعود القدر بعد عشر سنوات تماما ليضعني مع "سي الطاهر" في تجربة كفاحية مسلحة هذه المرة سنة 1955، وفي شهر أيلول بالذات التحقت بالجبهة كان رفاقي يبدؤون سنة دراسية ستكون حاسمة، وكنت في عامي الخامس والعشرين أبدأ حياتي الأخرى أذكر أن استقبال سي الطاهر" لي فاجأني وقتها، لم يسألني عن أية تفاصيل خاصة عن حياتي أو دراستي، لم يسألني حتى كيف أخذت قرار التحاقي بالجبهة)[11]. يظل "سي الطاهر" حاضرا في كل الاسترجاعات التي يلجأ إليها البطل المغترب، لحجم اشتياقه إليه؛ لأنه الماضي بكل حلاوته.

نقف هذه المرة عند استرجاع له علاقة (بشهر حزيران) الشهر الذي يتطيّر منه البطل كثيرا لأنه شهر النكبات والاخفاقات، وقد ارتبط في ذهنه بأكثر من حدث سيء (أما أول ذكرى مؤلمة ارتبطت بهذا الشهر فكانت تعود إلى سجن "الكدية" الذي دخلته يوما في قسنطينة مع مئات المساجين إثر مظاهرات ماي 1945؛ حيث تمت محاكمتنا في بداية حزيران أمام محكمة عسكرية)[12].

سبق وأن حدّثنا البطل عن حبه لهذه الذكرى، لأنها عرفّته وربطته بأحسن المجاهدين "سي الطاهر" لكنه ينفر منها ولا يرغب في استرجاع جزء منها-محاكمته-، لأنه يتوقع أن هذا الشهر سيؤلمه أكثر مما آلمه في الماضي.

يفاجئنا البطل باسترجاع آخر، كشف لنا من خلاله عن نفس مضطربة هاربة للماضي ومرتدة إليه، كي تعقد مقارنة بين زمنين متناقضين في المبادئ والمعايير –الماضي والحاضر- لنجد أنفسنا أمام مفارقة -جزائر الثورة وجزائر الاستقلال- فيصبح الماضي وثيقة احتجاج على الحاضر السيء الذي همش رجال الثورة وأبطالها في حديثه عن أحد أصدقاء "سي الطاهر" إنه "بلال حسين" (أقرب صديق إلى سي الطاهر أحد رجال التاريخ المجهولين وأحد ضحاياه)[13].

يواصل الحديث عنه ألما وحرقة (قضى سنتين في السجن والتعذيب ترك فيها جلده على آلات التعذيب أذكر أنه ظل لعدة أيام عاري الصدر، عاجزا حتى أن يضع قميصا على جلده حتى لا يلتصق بجراحه المفتوحة)[14].

ليس غرضنا التعريف بهذا الرجل في هذا المقام؛ بل غرضنا تعرية الواقع السيء والحاضر المؤلم والظالم له (لم يمت إلا مؤخرا في عامه الواحد والثمانين في 28 ماي 1988، في الشهر نفسه الذي مات فيه لأول مرة، مات بائسا وأعمى محروما من المال والبنين [...] يوم وفاته جاء حفنة من أنصاف المسؤولين لمرافقته إلى مثواه الأخير، أولئك الذين لم يسألوه يوما بماذا كان يعيش، لماذا لا أهل له مشو خلفه بخطوات، ثم عادوا إلى سياراتهم الرسمية، دون أدنى شعور بالذنب)[15].

مع هذا الاسترجاع نكتشف علاقة البطل الانفصالية والعدائية بالزمن الحاضر المهترئ، زمن المحسوبية والسيارات، لازمن أصحاب الأحلام البائسة والبطولات التي لم يعد لها أهمية، (مما دفع تلك النفس إلى الاغتراب، والذي ولدَّ ذلك الإحساس المر لواقع تلك التقلبات المؤلمة) [16]، حين رد فعلها لأبناء وطنه من المسؤولين .

أظهر خالد من خلال هذه الاسترجاعات نفسيته القلقة والمتوترة، والنافرة لتلك الممارسات اللاأخلاقية التي شاعت في زمن ما بعد الاستقلال، ولهذا يقارن في لحظة سريعة وعابرة بين زمنين؛ زمن الاستعمار الذي دخل فيه السجن لقضية وطنية تحت سلطة استعمارية، وزمن الاستقلال الذي دخله على يد جزائريين بدون تهمة معروفة (مرت سنوات كثيرة كان جلادوه هذه المرة جزائريين لا غير، ولم يكن له عنوان معروف)[17].

اشتغلت الكاتبة على هذه التقنية لكشف الأبعاد النفسية للبطل الذي دخل السجن مرتين مرة بسم الوطن والوطنية، ومرة ليهان ويذل ويحتقر بسبب ذنب لم يقترفه فينتهك جسديا ونفسيا(الوطن الذي أصبح سجنا لا عنوانا معروفا لزنزاناته، لا اسما رسميا لسجنه ولا تهمة واضحة لمساجينه، والذي أصبحت أقتاد إليه فجرا معصوب العينين محاطا بمجهولين يقودانني إلى وجهة مجهولة شرف ليس في متناول كبار المجرمين عندنا ،هل توقعت يوم كنت شابا بحماسته وعنفوانه وتطرف أحلامه أنه سيأتي بعد ربع قرن يوم عجيب كهذا يجردني فيه جزائري مثلي من ثيابي وحتى ساعتي، وأشيائي ليزج بي في زنزانة فردية) [18].

فلتعرية الواقع تكاثفت الاسترجاعات, التي أصبحت منشطا للذاكرة, بل هي الذاكرة نفسها, فمن خلالها ينظر البطل إلى الماضي, ليعقد مقارنة بين محكي الثورة ومحكي ما بعد الاستقلال، فالبطل في مرحلة ما من إقصائه وتهميشه وبعد فشله في التغيير والإصلاح راحت الذاكرة تنبش في أكياس الماضي حيث المبادئ والأخلاق حيث الشرفاء والنبلاء الذين قدموا أنفسهم فدية للوطن، لكنهم اليوم يقدمون الوطن فدية لمصالحهم الخاصة، فبين "سي الشريف" و"سي مصطفى"، و"سي الطاهر" و البطل "خالد" مفارقة واضحة نسجت خيوطها الجمالية عن طريق الاسترجاع الذي تم توظيفه كلحظات هروبية وانفصالية عن الحاضر الذي بات مصدر قلق وشعور بالاغتراب، فيما أصبح الماضي ملجأه ومأواه الذي وجد فيه راحته وسكينته ,بل وعلامة مميزة كشفت لنا عن تجارب البطل , تلك التجارب التي بدت من خلالها الذات محط مساءلة ومكاشفة, يبتغي من خلالها المتلقي البحث في مضمرات الخطاب الروائي للتعرف على التاريخ المضاد للتاريخ الأصلي الذي يمكن أن نقول أنه مات مع أصحابه, ولم يبق منه سوى مواقف تراوحت بين البقاء على عهد الأسلاف, والتخلي عن ذلك العهد مثلما فعل "سي الشريف" الذي خدم الثورة في شبابه هاهو اليوم يتخلى عن مبادئه وقناعاته ويلهث وراء الربح السريع ويخون الأمانة في سبيل المصلحة الشخصية، ولعل هذا من أبرز المنغصات التي أحاطت بالبطل وجعلته يشعر بثقل الحاضر الذي بات عدّوه اللّدود.

جاء هذا الاسترجاع لبيان المعاناة التي يعيشها البطل، وصعوبة تقبل تلك القيم ورفضها رفضا انفصاليا وسلبيا لا تمرديا تغييريا، وما يدل على ذلك, الموقف الذي واجهه وهو يتصفح الذاكرة المطوية وهي في مواجهة عنيفة مع الحاضر (أتصفح تعاستنا بعد كل هذه الأعوام، فيعلق الوطن حبرا أسودا بيدي عناوين كبرى كثير وقليل من الحياء)[19]، وجد البطل نفسه في زمن غابت فيه أواصر الحب والأمان الذي تطمح إليه كل نفس، وتغيرت فيه أخلاق الناس ومبادئهم، السبب الذي ضاعف إحساسه بالخيبة والفشل في تطوير وضع وطنه الذي أتاه حاملا للتغيير (ما أراد أن لايسميه ثورة ثقافية وإصلاح في العقول الجزائرية) [20] فيما أهداه الوطن حقيبة لجمع ما تبقى من أحلامه والتوجه بها نحو الآخر، ولهذا كان يعود إلى فردوسه المفقود الذي لازال عالقا في الذاكرة ومتمكنا من القلب والعقل, فهي ذكريات حميمية آمنة تقيه لفح الاغتراب.

إن الزمن الحاضر مر وعصيب بأوقاته وتفاصيله ومتغيراته، وهو ما جعل البطل يحس بمرارة المناسبات التاريخية وثقلها، فهي ما عادت تعني للناس شيئا (أستمع إلى الأخبار هذا المساء، وأكتشف أنا الذي فقدت علاقتي بالزمن، أن غدا سيكون أول نوفمبر)[21]، ليقع في صدام عنيف مع هذه المناسبة التي استفزت الذاكرة، وشرّعت أبوابها الموصدة لتذكره بأوجاعه وخيبات أمله (فما أوجع هذه الصدفة التي تعود بي، بعد كل هذه السنوات إلى هنا، للمكان نفسه لأجد جثة من أحببتهم في انتظاري، بتوقيت الذاكرة الأولى)[22].

فالبطل مجبر على هذه العودة، التي بدت ثقيلة على نفسه (يستيقظ الماضي الليلة داخلي...مربكا، يستدرجني إلى دهاليز الذاكرة، فأحاول أن أقاوم)[23]، لم يستطع "خالد" أن ينقذ نفسه من سلطة الذكريات التي جرفت بعضها البعض كالسيل، فأخذت مساحة نصية مقدرة بست صفحات (من25 إلى38)، نذكر منها (تزحف نحوي قسنطينة ملتحفة ملاءتها القديمة، تلك الأدغال والممرات السرية التي كنت أعرفها، والتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان، فتوصلك مسالكها المتشعبة وغاباتها الكثيفة إلى القواعد السرية للمجاهدين)[24].

فالذكريات أَبَت أن تفارق البطل، لذلك وجدناه يسترجع جميع التَّفاصيل المتعلقة بفترة جهاده لذم الحاضر الذي لم يحترم ذلك، وشرب كأس نخب موته وأفول نجوميته، ونحن بهذا نقف أمام أهم الملامح الاغترابية للاسترجاع، والتي كشفت عن حياة الشقاء والحرمان والإقصاء التي تعرض لها البطل في حاضره.

تكشف الاسترجاعات حالة خالد النفسية والعاطفية المحطمَة غداة زواج أحلام من رجل آخر، أين يحضر الحنين للأم كملمح من ملامح الاغتراب الزمني؛ فالحنين إلى الأم لم يأت هكذا؛ بل سببه تلك الفاجعة التي ألمت به (أما... لماذا قادتني قدمايَّ إليها ذلك اليوم بالذات، في ليلة عرسك بالذات؟ أرحت أزورها فقط، أم رحت أدفن بجوارها امرأة أخرى توهمتها يوما أمي)[25]، فزواج أحلام سلبه الإحساس بالطمأنينة وجعله في لحظة يأس يتوجه إلى قبر أمه ليسترجع فيه أمنه المفقودة (صدر الأمومة الممتلئ رائحتها... خصلاتها المحناة... طلّتها... ضحكتها، حزنها، ووصاياها الدائمة عندك يا خالد يأبني)[26].

لم يجد خالد ما يخفف به حرقة اغترابه العاطفي وألمه إلا أثرا من آثار أمه؛ قبرها النديّ الذي أراد أن يتوسد حجره ليُخرج منه ما يكفي من الدفء والحنان المفتقر لهما، وفي تلك اللحظات التي

كانت تُزف فيها أحلام إلى رجل آخر، لكنه حاول أن ينساها لتعود مرة أخرى وتعبث بذاكرته (كيف عدت...بعدما كاد الجرح أن يلتئم، وكاد القلب المؤثَث بذكراك أن يفرغ منك شيئا فشيئا، وأنت تجمعين حقائب الحب، وتمضين فجأة لتسكني قلبا آخر)[27]، فخالد عاش الأحداث –الحب والزواج– واغترب عنها، من ثم آلت إلى ماضٍ مؤلم أصبح يخربش في ذاكرته ويعبث بها ليبعث بها من جديد إلى الحاضر، وهو ما جعله ضائعا بين الانتماء للماضي والرغبة في إحيائه والاحتماء به، والتأقلم مع متغيرات الحاضر ومنغصاته التي كثيرا ما استفزته ليحدث الانفصال الزمني والذهني؛ وتلازمه الخيبة والحنين.

2- تراكمات السرد الاستذكاري في رواية اكتشاف الشهوة:

لجأت الكاتبة "فضيلة الفاروق" لتراكمات السرد الاستذكاري لتضع المتلقي أمام طبيعة البطلة الانفصالية، وتبرز معاناتها الزوجية بشكل مكثف، ف"باني" بعد أن تزوجت وغادرت الجزائر إلى باريس اصطدمت بالحياة التعيسة هناك، وبتفاصيل لم تحسب لها حسابا، فتسترجع محكي طفولتها في أزقة قسنطينة وحاراتها وحكايات جدتها وأختها "شاهي" المفعمة بالحنين والشوق(الذي يعد من أولى الصفات التي يعبر بها المغترب عن لوعته وما يكابده من الم وحرقة الفراق)[28]، لتذكرنا بالهوة الشعورية المكثفة والملغمة بالوحدة والعزلة التي تكشف بدورها عن حال البطلة المغتربة وهي ضائعة بين زمنها الحاضر المثخن بالجراح والماضي الذي غدا بلسما، رغم القسوة التي كانت تتعرض لها في أسرتها :"الأب، الأخ"، وحتى الأم.

وما تراكمات السرد الاستذكاري إلا دليل على تضخم اغترابي في نص الرواية، مما يوحي بتمكن الاغتراب النفسي والأسري من حياة البطلة المنفصلة عن الزوج والزمن والمكان، فقد كانت تختار لنفسها الهرب إلى الماضي حلا تعويضيا تنفيسيا، جراء ما تنوء به الذات من ألم ومعاناة في بيتها الزوجي.

فالاسترجاع جعلنا نقف عند شعور "باني" بالاحتقار والعنف، وكل هذا تتعرض له من قِبل زوجها؛ ففي ظل قهرها وإهانتها وضربها تحن إلى الماضي فيحملها الشوق والحنين إلى قسنطينة أين كانت تلعب، مقارنة إياها بشوارع باريس الباردة والموحشة.

تحتمي البطلة بهذا الحصن المنيع –الماضي– لتهرب من زوجها وتنسى حجم الخسارة التي مُنيت بها ولو مؤقتا، فتغادر واقعها وتتسلل عبر ممرات الذاكرة مستخدمة أسلوب الاستفهام المفضي إلى

الحسرة والألم والحنين والشوق والضياع (أين المالوف؟ أين الجيران الدافئون؟ أين أصوات الباعة الفقراء [...]؟، أين قسنطينة؟ وأصوات المآذن ورائحة المحاجب والزلابية والبوراك؟ يدهشني أن لا رائحة في باريس، وأن لا أصوات في الحي الذي أقطن فيه حتى الشارع لا مارة فيه بالمعنى الحقيقي، أشباح تعبره من حين لآخر، ثم تختفي عن الأنظار)[29].

إن ضغوط الحاضر النفسية وتفاقم العنف الجسدي والجنسي الموجه ضدها جعلها ترحل عبر الذاكرة لتسترجع ذلك المنظر الجنسي الذي شاهدته وهي طفلة، للمقارنة بين ما كان وما شاهدته في الماضي، وبين ما هو كائن وما عانته مع " مود" من جفاء واحتقار (أغمضت عينيّ وتركت الصمت يحملني بأجنحة إلى شارع "شوفاليه" فإذا برائحة الحمص تملأ المكان، والصبيحة لا تزال داكنة، وآهات ورجاء أنثوي رقيق،...الصوت الرجالي ليس غريبا عليّ (...) لهيب النار يكتسح المكان ورائحة الحمص، وقع عصا تقترب...فتحت عيني وفمي الزاوية داكنة، كومة رجل يعلو امرأة)[30]؛ فالاغتراب الجنسي الذي تعانيه البطلة مع زوجها جعلها تتذكر بسعادة واندهاش الماضي المتقد.

لا تكتفي الساردة باسترجاع محكي الطفولة حنينا وشوقا ومفارقة بين الزمنين والفعلين؛ بل تلجأ إليه في مواضع أخرى لإدانة السلطة الأبوية القائمة أساسا على العنف والتمييز (كنا جميعا نعيش في قفص خارج أجسادنا تماما خارج رغباتنا، نخلق في فضاء من القوانين المبهمة والتقاليد التي لا معنى لها، ونظن أننا أحرار، من جهة كنت أخاف من والدي، ومن جهة أخي "إلياس"، ولهذا بترت أكثر من علاقة قبل أن يأخذ أحدهما خبرا بها [...] هما اللذان لا يزالان قابعين في داخلي، ولم يختفيا أبدا من مبنى الخوف الذي شيّداه في قلبي، حتى وأنا هائمة في شوارع باريس ينتابني شعور غريب بأن أحدهما يتعقبني ويراقبني، فألتفت خلفي أحيانا أبحث عنهما بين الوجوه، وأتخيلني فأرة تركض في قفص بدافع الخوف كنت أغادر الأماكن كلها، وأخلي ذاكرتي من الرجال الذين عرفت أو من أي شيء قد يُصنَف ذكرا، فبالنسبة لي "إلياس" تنين خرافي بعشرة رؤوس قد يطالني حتى وإن عدت إلى بطن أمي)[31].

تسترجع "باني" ماضي طفولتها التعيسة وحقدها على أنوثتها بحكم الامتيازات التي يمنحها المجتمع للرجل، لتأكد خيبتها كأنثى ماضيا وحاضرا، كما وقفت على واقع علاقتها بالأب والأخ وسلطتهما القمعية التي أحالتها على الهامش، وأسهمت في طمس هويتها الأنثوية فهاهي شخصية

منفصلة عن الواقع الذي بدا مخيفا ومعاديا بالنسبة لها، ماضيا وسط عائلتها، وحاضرا وسط دهاليز الزوج المظلمة، والجامع بينهما هو الخوف والكره نفسه.

تستمر "باني" في تحريك دواليب الذاكرة، لتسلط الضوء على طفولتها المعطوبة المعتمة والمثخنة بالجراح والألم (لم أكن فتاة مسالمة، كانت رغبتي الأولى أن أصبح صبيا، وقد آلمني فشلي في إقناع الله برغبتي ولهذا تحولت إلى كائن لا أنثى ولا ذكر، ولا هوية لي غير الغضب الذي يملأني اتجاه العالم بأكمله)[32] ، فالمحكي الطفولي يبدأ من الصفحة (13) إلى الصفحة (22)؛ أين تحكي "باني" عن أيام الطفولة والمراهقة، بكل مراحلها وأحزانها ومنغصاتها (كره وغضب وتمرد وضرب، ومنع) فالتفكك الزمني والالتباس الذي طبع حياة البطلة ليس في الواقع سوى (تجسيد جمالي ورمزي لقلق الكينونة ولا يقينية الأشياء، وتصدع الثوابت واغتراب الإنسان نفسه عن متاهة العالم)[33]

نقف عند استرجاع آخر يؤكد جمال الماضي ورونقه وحنين البطلة إليه، مقابل ثقل الحاضر ورتابته (ذهبت أيام جدتي مع الشارع الذي أحب، مع المدينة التي أحب مع الرتابة التي أحب، مع الحياة التي بدت حلوة مقارنة مع التي أعيشها اليوم)[34].

بعد فشل علاقتها مع "مود" أصبح الحاضر شديد الألم يهدد الذات بالزوال، لذلك تفر باتجاه الزمن الماضي رغم قسوته لتروح عن نفسها باستذكار أيام جدتها التي كانت كثيرة الكلام، وما حفظته ذاكرتها من حكايات الشارع القسنطني ومبيعاته، ورائحة أطعمته التي لم تغادر أنفها (فالحواس تلعب دورا أساسيا في تحفيز الذاكرة لتتم عملية الاسترجاع، فالرؤية البصرية لشخص ما أو شيء ما في الحاضر قد تدفع إلى استعادة الماضي) [35]، فشهر رمضان من أهم المحفزات التي جعلت نار الماضي تتقد بداخلها، لترحل عبرها إلى حيث رائحة المحاجب والزلابية وغيرها من الروائح التي تشكل عبق المكان وهويته.

تظافرت التقنيات السالفة الذكر لتعبر عن انسحاب الشخصيات إلى عوالم مختلفة لتجسيد رفضها المطلق للزمن الحاضر الملون بمشاعر الإحباط والتهميش، والعنف والماديات، ماجعلها تضيق ذرعا بالحياة الراهنة ليُصبح الزمن الماضي لحظة انفصالية هروبية تنشد فيها ضالتها وتقهر اغترابها، وخوفها من الزمن الحاضر الذي بات عدوها اللدود.

الهوامش والإحالات:

(1) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان، ط26، 2010، ص 08.
(2) المصدر نفسه، ص 34.
(3) مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 202.
(4) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 35.
(5) المصدر نفسه، ص 30.
(6) المصدر نفسه، ص 36.
(7) المصدر نفسه، ص 50.
(8) مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، رواية تيار الوعي نموذجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998 ص 30.
(9) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، دط ، 1992، ص 110.
(10) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 30.
(11) المصدر نفسه، ص 32، 33.
(12) المصدر نفسه، ص 243.
(13) المصدر نفسه، ص 320.
(14) المصدر نفسه ، ص 321.
(15) المصدر نفسه، ص 300.
(16) أحمد علي الفلاحي، الاغتراب، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة نفسية/ اجتماعية)، دار غيداء، الفلوجة، ط1، 2013، ص75.
(17) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 243.
(18) المصدر نفسه، ص 243 ،244.
(19) المصدر نفسه، ص 20.
(20) ينظر: المصدر نفسه، ص 148.
(21) المصدر نفسه، ص 25.
(22) المصدر نفسه، ص29.
(23) المصدر نفسه، ص32.
(24) المصدر نفسه، ص 38.
(25) المصدر نفسه، ص 329.
(26) المصدر نفسه، ص 329.
(27) المصدر نفسه، ص 16.
(28) أحمد علي الفلاحي ،الاغتراب في الشعر العربي، ص 98.
(29) فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ط1، 2006، ص 16.
(30) المصدر نفسه، ص 10، 11.

(31) المصدر نفسه، ص 55 ،56.
(32) المصدر نفسه، ص 14، 15.
(33) ينظر: يوسف شكير، شعرية السرد الروائي عند إدوارد الخراط، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، عدد2، مج3، أكتوبر-ديسمبر 2001، ص 242.
(34) فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص 13، 14.
(35) مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص203.